جدلية الأنا والآخر في الرّواية العربية بين الصراع والتعايش

رواية "سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج أنموذجا

The dialectic of the ego and the other in the Arabic novel between conflict and coexistence: Wasini Al-Araj's "Sonata for the Ghosts of Jerusalem" as an example

ط. د يمينة بن دوي*

أ. د حفيظ ملواني♣

تاريخ الإرسال: 2022/12/27	تاريخ القبول: 2024/04/15	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى رصد حضور ثنائية الأنا والآخر في الرواية العربية كأكثر فن أدبي هادف، حيث يتجلّى فيها الصراع حول التعايش بين الشرق والغرب المشكّلة لجدلية الأنا والآخر، ولاستكشاف هذا تطبيقا؛ اخترنا نموذج الدراسة رواية "سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج، وذلك لمعرفة طبيعة هذه العلاقة وما يميّزها هل التّحاور والتعايش أم الصراع والتّضاد؟ وعلى أثر منهج الوصف والتحليل نحاول الإجابة على إشكالية البحث المطروحة أعلاه في ميدان العرق، والثقافة، والدّين.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربية، الأنا والآخر، الصراع والتّعايش، رواية سوناتا لأشباح القدس.

Abstract:

This study aims to monitor the presence of the dichotomy of the ego and the other in the Arabic novel as the most meaningful literary art, in which the conflict and coexistence between East and West (the ego

*جامعة لونيسي علي البليدة 2 (الجزائر)، ey.bendoui@univ-blida2.dz

♣جامعة لونيسي علي البليدة 2 (الجزائر)، Melouani.hafid@yahoo.com

and the other) are manifested in it. To explore this in practice, we chose the study model, the novel "Sonata of the Ghosts of Jerusalem" by Wasini Al-Araj, in order to know the nature of the relationship. Is it distinguished by dialogue and coexistence, or conflict and antagonism? Through the method of description and analysis, we concluded that the novel embodied the duality (the ego and the other) from a standpoint that seeks to coexist with the other, accept it, and dialogue with him in many paradoxes, by respecting the principle of difference, regardless of the intellectual and ideological divergence that is based on the difference; Religion, history, culture.

***Key words**: Arabic novel, the ego and the other, conflict and coexistence, Sonata of the Ghosts of Jerusalem.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: يمينة بن دوي ey.bendoui@univ-blida2.dz

مقدمة:

لا يخلو العالم الرّوائي من تمثيل الذّات أو تمثيل الآخر، حيث يتشكّل من هذا التمثيل الهوية السردية الفارضة للصراع بين الأنا والآخر. فهذه الثنائية لا تتبلورُ في علاقة سطحية فحسب لتكوّنَ مفارقةً أو توافقاً؛ إنّما تُخفي وراءه خلفيات عديدة دينية، ثمّ عرقية، تاريخية، وكذلك دورُ الهوية الثقافية بما تحمله من اختلاف الآداب والعادات والتقاليد والأعراف في نشأة هذه الثّنائية، ولكلّ ذلك مرجعيات وإيديولوجيات نوعية تجعل من الأعمال الأدبية خصبة وغزيرة، خاصة أنّ العمل أو الجنس الأدبي يولدُ ذاتياً باسم المؤلف ليمتدّ نحو ضبط تصوّر الآخر للأنا، لكن هل يحملُ توجّها مخالفا للمجتمع نحو الآخر أم موافقاً، وتلك رؤية ومشكلةٌ تُضاف إلى معايير الحكم على طبيعة علاقة الأنا بالآخر.

من ثمّ جاءت هذه الدراسة محاوِلةً الوقوف عند هذا الصراع خاصة أنّ الروايات العربية اهتمت بالآخر واتّخذته موضوعاً لها نتيجة الاختلافات الدينية والسياسية والعسكرية، والتي عزّزت التّمايز بين الشّرق والغرب، وعليه نهدف في هذا

المقال من تحليلنا لرواية "سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج" للإجابة على التساؤل التالي: هل عالجت الرواية العربية علاقة الأنا والآخر من منطلق بناء جسور التفاهم بين الأنا والآخر أم توسيع الهوة بينها من خلال الصراع والتضاد؟ وعليه جاءت هذه الدّراسة لتوضيح العلاقة القائمة بين الأنا والآخر.

ومنهج الدراسة في غالبه تحليلي، وإن تخلّله الوصف في جزء يسيرٍ منه في ذكر بعض الشواهد والنماذج، والاستشهاد ببعض الاقتباسات في هذا الموضوع الحسّاس من الدرس النقدي.

2.ماهية العلاقة بين الأنا والآخر:

1.2 مفهوم الأنا والآخر:

تعدّ ثنائية الأنا والآخر إشكالية حضارية ومحورية تقوم على التناقض؛ إذ هما عنصران خاضعان لمبدأ الاختلاف الحضاري والجغرافي والسياسي والثقافي، فالأنا بكونها تمثل الشرق أو العكس وكل ما يميزه عن الطرف الأخر ثقافيا وحضاريا وعرقيا ودينيا؛ أما الآخر فيمثل الغرب نقيض الشرق وهذا لا يعني أن الأنا عربية والأخر غربية دائماً فيمكن أن تكون العكس بكلّ ما يحملُه من سمات دونية أم غير ذلك، وتتحدد العلاقة بينهما بالتقارب والتعايش أو الصراع والتصادم النّاتج عن اختلاف اللغة.

ولا يمكن أن يكون "أنا" دون "الآخر"؛ فكلاهما مرآة غيره، بيد أن "الآخر" هو "الأنا"؛ أي أنّ ما ينسب ل "الأنا" من شأنه أن ينسب ل "الآخر"، فالآخر هو "عبارة عن مقوم جوهري من مقومات الذات، من حيث أنها لا تكون كذلك إلا من خلال "الآخر"، ولا تتعرف على ذاتها إلا عبر ذلك الآخر"[1].

ولفظ "الآخر" مرادف للفظ "الغير"، وهو مقابل للفظ الأنا؛ فكل ما هو خارج عن الذات المدركة هو غيرها، وبالتالي الشّيء الموجود خارج الأنا هو "اللا أنا" أو "الآخر"؛ ف"الأنا" هو الذات المفكرة، والموضوع الخارجي هو الآخر "[2].

وفي خضم الحديث عن الآخر الذي ارتبط بالهوية، يعرفها "لا كان" بأنها التماهي، وهي ما ينعكس في الأشياء من صورة الذات، وهي كذلك شيء مستعار يستعيره الذات

مما يسميه لا كان "الآخر" الكبير الذي يتكون من القانون والمجتمع والآخرين، والآخر الكبير موقعه في اللغة؛ لأنها الأساس المشترك الذي يمكن به أن تكون لنا صلة بهؤلاء – القانون والمجتمع والآخرين-"[3]، فاللغة مكون هوياتي للذات وللآخر، ومن خلالها يتم التواصل ويتحقق التمازج.

وقد ارتبط الآخر في الفلسفة بخاصية الاعتراف؛ فالاعتراف بالغير يستدعي تفهمه مفهوما مركزيا؛ إنه مفهوم الاختلاف ما دام الغير هو كل ما ليس أنا، وما لست إياه وهذا الاختلاف إما جزئيا أو كليا، وبالتالي فالغير ليس فقط أنا آخر غيري، بل أنا يسلبني ذاتيتي الخالصة، "وكأن العالم الخارجي هو الوسيط الذي يحقق الاتصال بين النفوس، ولمّا كان الموجود الواعي هو عبارة عن عملية اتصال ذهني ومشاركة فعالة مع بيئته الخاصة، فإن المرء حين يدرك مثل هذا الموجود إنما يدرك تلك العملية التي يتعامل بمقتضاها "الآخر" مع العالم "[4].

أما الآخر في الأدب، فقد حدّد على أساس الاختلاف"، ذلك أنّ "الأنا" يمثل الكاتب وموضوعي "الآخر" الذي تحدده اختلافاتي معه، سواء أكان هذا الاختلاف مكانيا أم زمانيا، ومنه يبدأ الآخر حين يبرز الوعي باختلافي، وينتهي عندما نعترف، هو وأنا بكوننا نشكل ذواتا مغايرة قادرة على التمازج والترابط في خضم التّنوع الثقافي.

2.2 الأنا والآخر في النّسيج الرّوائي:

شغلت جدلية الأنا والآخر المفكرين والأدباء، كونها ثنائية قائمة على التداخل فيما بينها والتّنوع داخل العمل الأدبي، فراح الأدباء يوظفون هذا الآخر الذي هو صفة كل ما هو غير أنا؛ فكل سرد يعني بالضرورة سردا للآخر؛ إذ لم يعد هناك مهرب من الاتصال بالآخر سواء كان الآخر "أنا" أو الأنا "آخر"، فالآخر يشكل الكلية المزدوجة للكينونة الذاتية وتقويضها في الآن نفسه، وهو يتداخل في سلسلة لا متناهية تبدأ من الانفصامات الذاتية في علاقة الذات بالذات، ولا تنتهي إلا بانتهاء الوجود البشري، والفرد يمكن أن يكون "آخر" بالنسبة لنفسه، ويمكن أن يتحول إلى "آخر"، وكل شخص هو "آخر" بالنسبة لأي شخص كان ومهما تغيرت أسس التّغاير بينهما.

ليس "الآخر" دائما هو الغرب، و"الأنا" هو الشرق؛ فقد نلاحظ أن "الأنا" هو المرأة و"الآخر" الرجل، وقد نقصد بـ "الأنا" الفرد و"الآخر" هو الجماعة، ف" الآخر يتعدد بتعدد تمثيلاته، وبذلك يرتقي التصوير الروائي في التعامل مع الآخر باعتباره شخصية فنية وإنسانية وليس فكرة ثابتة مستمدة من إيديولوجيا جاهزة، ولا ضير أنّ الرّوائي "كلما أذعن للفن وتمزق بين الامتثال لمقوماته والامتثال للأطروحة الاستعمارية، ضمن لعمله القيمة الفنية والإنسانية"[5].

وجدير بالتنبيه إلى أنّ فكرة "الآخرية" تتشكّل من حجم الصراع بين الإنسان والإنسان المغاير له، وكل صراع بينهما "يبتدئ من توضّع كلا الطرفين في حيّزي "الآخرية"، فلا يكون بينهما صراع ما لم يكن كل منهما آخر بالنسبة للآخر، على المستويين الفردي والجمعي"[6]. كما أن الكاتب اليوم يجد نفسه إزاء مهمة تاريخية-إنسانية وليس نضالية يومية فحسب، وهذه المهمة تكمن في تحقيق حضارتين: كونية ومحلية؛ كونية "أي الاندماج فيما يسمى بثقافة التواصل والتخاطب من أجل حماية الأبعاد الانسانية السّلمية للفكر الأنواري بالنسبة للمثقف الغربي وبالنسبة لنا، فالتراث الإنساني فيه مشاركة تراثنا الحضاري"[7].

والمبدع لا يجدُ حرجاً في تقديم ثقافته أو الدفاع عنها والاندماج في قيم التواصل والتخاطب؛ بحيث "تكون لغة التواصل والتقاطع والحوار والانخراط مع غيرنا في الحضور الذي هو ماض ومستقبل، حضور فيه الإبداع، فيه كرامة الأنا والآخر، حريتهما والتزامهما بقيم الحرية كوجود"[8]؛ لأجل هذا دعا "ليفي شتراوس" إلى التّسامح مع الآخر من خلال إرساء أسس التعايش والحوار مع الآخر من منطلق أنّ الحضارة تراث إنساني مشترك؛ "فالحوار وسيلة للمعرفة، والمعرفة سبيل للتواصل"[9]؛ بحيث يتحقّق التواصل الحقيقي عندما يعرف كل منا أنّ ثمة حدوداً لا نتخطاها أثناء اتصالنا بالآخرين.

3. فضاء وقائع رواية "سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج:

1.3 مضمون الرواية:

تروي رواية سوناتا لأشباح القدس قصة "مي" الفتاة الفلسطينية التي سافرت مع أبيها إلى أميركا وهي تبلغ الثامنة من عمرها، اضطرت للمغادرة بسبب الحروب التي خلفها الاحتلال الصهيوني، حيث لم تكن تدري أنها رحلة نحو المنفى والاغتراب في اعتقادها أنها رحلة مؤقتة، اعتادت الحياة في هذا المنفى اللآختياري أحبت الفن والموسيقى، تعرفت هناك على شاب انجليزي يدعى "كونراد" تزوجته وعاشت معه إلا أنه تركها مع ابنهما "يوبا" وسافر إلى عمله ولم تسمع عنه أي شيء، عاشت مع طفلها وبين ألوانها وموسيقاها وهي في فراش الموت راحت تسرد لابنها كل ما عايشته منذ طفولتها حتى موتها، تعلق هو كذلك بأمه وأحبها بجنون، وأحب الأرض التي حكت له عنها رغم أنه لم يراها؛ كان فتىً مولعاً بحب الموسيقى، كان يقترب من ذكريات أمه يوما بعد يوم وهو ما ساعده على تخليد ذكريات والدته في لحن موسيقي سوناتي. لقد كشفت الرواية عن بشاعة الاستعمار الأوروبي وفظاعة جرائمه ضد الإنسانية، وتدميره لأرض ليست له ونفي أهلها وإنكار دينها.

2.3 مضمار الأنا والآخر في معترك "سوناتا لأشباح القدس":

يتمثل الأنا في هذه الرّواية في شخصية مريم"، أما الآخر في هذه الرواية هو "أميركا" وسكانها مختلطو الجنسية، والآخر هو الاستعمار الأوروبي، والآخر هو اليهودي الطيب الذي عاش في القدس، ثمّ عاد إليها مستعمرا، فقد مارس الغرب كل أنواع الاستبداد على الشّرق، منها الاستبداد السّياسي (الطاعة السّياسية)، وأخطرها الاستبداد الثقافي "وضحايا الاستبداد الثّقافي يميلون للتفهم الشّرعي قدر الإمكان لثقافة الغرب الغالب في السّياسة والاجتماع والحكم"[10]، ففي الاستعمار التّقليدي، تبقى الشّعوب في أوطانها، تمارس حياتها وطقوسها ووجودها في ظل نهب خيراتها واستعبادها. لكن "الآخر" يختلف في ظلّ الاحتلال الصهيوني؛ فهو يمارس اقتلاع شعب من أرضه لتوطين محتل آخر لا ينتمي للأمة والوطن العربي بصلات قربى؛ إذ لا هوية له ولا انتماء ولا تجانس، فهو خليط من أمم متعدّدة وشعوب وأعراق وثقافات مختلفة وغايته

العيش والحياة على أنقاض شعب آخر"، لقد كشفت الرّواية عن بشاعة الاستعمار وفظاعة جرائمه اللاإنسانية، وتدميره لأرض ليست له وتهجير أهلها "قبل أن تأخذك عاصفة مجنونة انتزعتك من أرضك ورمتك في منافي مدينة لم تتصوريها حتى في الأحلام. كانت القدس هي بداية الدنيا ومنتهاها بالنسبة لك "[11].

جسّد واسيني الأعرج ذلك في شخصية مريم التي حاولت أن تتأقلم مع حياتها الجديدة، غير أنّ ذكريات وطنها المسلوب لا تزال محفورة في الذّاكرة، فهي رغم جنسيتها الأمريكية، إلا أنّها لم تتنصل من جنسيتها العربية "تلك قصة أخرى لا أشتهي الغوص فيها لأنّها تذكرني، وبشكل غريب بمدن وناس أرضي الأولى الذين استيقظوا ذات صباح على الدبابات، وهي تهدم البيوت على رؤوسهم، ويخرجون ليلا منها أو فجرا، ويجبرون على مغادرة الأرض التي لم تعد لهم، وصارت لغيرهم"[12]، فالبطلة (مريم) لم تغادر وطنها رغبة "وإنّما لآخرية (غيرية) معمّمة "[13].

3.3 الآخر سالباً لهوية الأنا:

يستعرض الرّوائي من خلال والد مريم في معرض حديثه عن "الآخر" المستعمر وتاريخه المليء بالانهزامات، فدارت الرحى فغدا هو المحتل أرضا ليست من حقّه "أستغرب من شعوب قهرت وكادت تنقرض، تمارس اليوم الشّيء نفسه مع شعوب أخرى ليست في الأصل عدوة لها، وليست هي من تسبب في مآسيها؟ لا أفهم؟ اليهودي الذي أبكته جدتي عندما اقتيد لحمامات الموت والهولوكوست، وبكاه أخوالي وأمي، هو نفسه الذي قتلهم ونكل بهم واحتل بيوتهم؟ وكأن الحروب لا تعلمنا إلا كيف نصمت مؤقتا ثم نعود مدججين بالأحقاد العمياء ضد كل من ليس نحن، كيف نفسر ما يحدث هناك؟"[14]، وهذا يعني أن الآخر استعمر البلاد بحكم مسبق على أن الآخر (الشرق) هو من احتله واستغله، واليوم جاء لاسترجاع حقوقه المسلوبة.

أراد واسيني الأعرج أن يرسم معالم الآخر المستبد، وهو قيمة مركزية طرحها الراوي لكشف أفعاله اللاإنسانية "يتساءل بابا حسن عن ظلم المستعمر ماذا لو سأل الناس أنفسهم للحظة عن فعلهم؟ مشكلة القاتل المعتز بجبروته أنه لا يسأل نفسه أمام جشعه المتنامي"[15]، وهو ما نسميه بالعدوانية؛ "فالعدوان لا يطلق إلا على ألوان العنف

في السلوك على حين أن العدوانية أعم من هذا"[16]. إنّ إصرار "الآخر" على تجاهل "الأنا" وتجريده من هويته ومن أرضه تمثل في اعتراف مريم "أنا لا أكره اليهود؛ فلا مشكل بيني وبين دينهم، أمقت الصهيونية لأنها سرقت مني أرضي وذبحت أهلك وهل الأوروبي يحس ببشاعة المحرقة، كما نحسها؟ لا أعتقد. أنا عشتها مع أناس أعرفهم ويعرفونني. فقد التهمت أناسا أبرياء لم يطلبوا شيئا أكثر من الحياة"[17]، وهو دليل على العداء الذي تحمله البطلة في نفسها اتجاه المحتل الصهيوني.

إن "الآخر" قوة عظمى استولى على نصف الكرة الأرضية فنزعة التمركز حول الذات متجذرة في ثنايا التفكير الغربي "كل الحروب عمياء. لقد صمموا على أن يسرقوا الأرض ويخرجوا الناس منها بالقوة، ومن لم يخرج قتلوه أمك وجدتك وعليان وغيرهم، كانوا حجر عثر في طريقهم"[18]، فبذلك مارس الآخر كل مظاهر القوة والجبروت حتى يجعل من الأنا الشرقي تابعاً له.

يُصرّحُ الرّوائي بحقيقة قهر المسلمين وتهجيرهم من أرض فلسطين غصباً، على لسان "مي" يقول: "لم نكن، أنا وكوني، متفقين في الكثير من الأشياء، هو كان يريد الذهاب إلى إسرائيل بوصفها أرضا كبقية أراضي الدنيا، وكنت أريد الذهاب إلى فلسطين، فأنا عندما غادرت أرضي قسرا، كنت أعرف أرضا يسكنها المسلمون والمسيحيون واليهود اسمها فلسطين "[19].

4.3 اللغة موضوعا للاختلاف بين الأنا والآخر:

تعدّ اللغة مجالا واحدا، ومجازا واحداً للأنا والآخر، للضد وضده، "اللغة لغتي بمقدار ماهي لغة الآخر، وهي تجسيد لي ولكينونتي، وتجسيدٌ موازٍ للآخر الذي يمكن أن يصل به تطرّفه الآخري إلى درجة نفيي وإلغائي بواسطة ما جسّد كينونتي نفسها، أي لغتي الّتي هي لغته بالمقدار نفسه" 20 فاللغة مشترك إشكالي بين الأنا والآخر.

يقتضي التواصل مع الآخر محاورته بلغته، ومهما تعددت أشكال هذا الحوار سياسيا، دينيا ثقافيا، لابد من لغة، ومهما اختلف الآخر عني، لابد من تأسيس حوار، فالغرب حين حاول القضاء على العربية انهمك المستشرقون بفهم اللغة العربية وتعلمها وإتقانها، وانشغل الشرق بالحروب، فاللغة هي التي مكنتهم من التعرف على ثقافة

الشرق، إذن فمواجهة الآخر تتطلب مواجهته بلغته وإلا كيف الوصول إلى أفكاره والرد عليه. ولا ضير من أن الولوج إلى ثقافة أي بلد يبدأ بتعلم لغته، فاللغة هي المكون الأساسي للثقافة، وهو ما نجح منه "بابا حسن" ودليل ذلك قول القبطان لبابا حسن وطمأنته بنيل إعجاب الأمريكان؛ لأنه يتقن اللغة الانجليزية "كنت أتصورك مثل الذين يسافرون معنا غالبا. طيب لا أعرف لماذا أوصوني عليك وأنت بكل هذه الثقافة وهذه المعرفة؟ تعرف تفاصيل أنا لا أعرفها. أنت ستعبر الحدود مغمض العينين، ما دمت تعرف كل هذه المعرفة عن أمريكا، وهذه اللغة الإنجليزية الأنيقة. ستعجبهم لا محال الأميركيون لا يحبون الأغبياء والصلفين والمنغلقين."[21]؛ فقد جاء الحديث عن الأميركان بصيغة الجمع وبضمير الغائب "هم".

تتجسّد الغيرية في الرواية عبر اللغة وفق ما نلمسه من استعمال مكثف لألفاظ وعبارات من لغات أجنبية تتصدرها الإنجليزية، ومن أمثلة ذلك ما ورد على لسان "يوبا": "أوقفني عسكري وسيم، مدجج بالأسلحة، عند حائط البراق ومقام جدها الأول. ابتسم. لابد أن يكون قد ظنني مجنونا، ثم قال: أنت في مواجهة حائط المبكى ولا يوجد في عمقه، كما تراه مقام؟ ثم سألني من أين؟ أخرجت جوازي من جرابي وقدمته له، هز رأسه وقال بابتسامة عريضة بلّدت قليلا من محياه الجميل: أميركان؟ ..welcome welcome أعاد لي الجواز "[22].

يحيلُ حضور المكون اللغوي الأجنبي على الانفتاح على لغة الشخصيات ويوهم بواقعيتها"[23]؛ فهو يعكس بعداً ثقافياً يتعلّقُ بهوية الإنسان العربي وعلاقته بالآخر الغربي، كما يعبّرُ على رؤية الراوي المنفتحة على الآخر الذي يحضر هنا عبر مكونه الثقافي/اللغة. ولا يختلف اثنان في أن اللغة وسيلة للتفوق على الآخر ومحاولة لإثبات شخصيتي أمامه "بقيت مشدوهة في ابتسامة الرجل الخشنة والباردة، وهو يردّد Welcome: أنا متأكدة من أنه ظن والدي إنجليزيا"[24]، لقد أتقن الأنا اللغة أكثر من صاحبها.

5.3 اختلاف الأنا والآخر أخلاقا وطبعاً:

إن البحث في طبيعة أخلاق الآخر هو بحث في الطبائع الفردية، والتراكيب الاجتماعية، والتوترات والتناقضات وكل ما يميز الحياة البشرية، والحياة في أميركا

تختلف عن الحياة في القدس ذلك باختلاف طبائع الناس وميولاتهم وأشكالهم ونظامهم في الحياة، تظهر علاقة الأنا بالآخر في شخصية "كونراد" مع صديقه "فرانشيسكو تعود على شطط حيه الذي يقع في الشمال الشرقي لمانهاتن عندما يسأل: ألا تخاف من التحرك ليلا في البرونكس؟ يضحك يقهقه أحيانا: أنتم تتخيلوننا أناسا يتقاتلون ليلا نهارا، بلا راحة ولا رحمة. لا، هناك نظام مثلما هو الحال في كل مكان، في بروكلين، هارلم، مانهاتن، كوينز، وغيرها.. ويجب أن تتعامل بقدر من الذكاء مع هذا النظام الذي استقر في عقليات الناس، هذا كل ما في الأمر "[25].

يكشف الرّاوي عن مفاهيم الحياة والفن، والعلاقة بين الغرب والشرق، إنه المعادل الفني للعلاقة مع الغرب؛ فالغرب هنا يحضر بوصفه تكوينا ثقافيا ذا أبعادا إنسانية، يشكله الكاتب في ضوء وعيه لذاته المتطلعة للحرية وللعلاقات الحضارية التي تنهض على الحوار لا على الفصام وعلى التبادل والنقاش، تجسد ذلك في العلاقات بين المسلمين واليهود، الروح الإنسانية التي اتصف بها الآخر(اليهودي) "نعم يا حبيبي يوبا بكى الرومان الحقيقيون علماء أثينا الذين أكلتهم الأحقاد والحروب، وبكوا المدن التي أحرقت بشكل همجي بكى المسلمون الأتقياء والرهيفون علماء فارس وبخارى وداغستان الذين أبيدوا وقت الفتوحات وسحلت أجسادهم لأنهم رفضوا الوافدين الجدد، بكى الكثير من عساكر الحلفاء الحرائق التي التهمت برلين مجانا وخرّبت متاحفها وكنوزها، بكى الكثير من اليهود الطيبين عندما أتلفت أجزاء كبيرة من المسجد الأقصى، وساهموا في إعادة تأثيثه وشراء أخشابه وأبوابه "[26].

جسد الروائي صورة الآخر المحب للحياة والفن في شخصية "فرانشيسكو" الذي يهتم بالتفاصيل يقول في موضع من الرّواية: "فرانشيسكو محترف في الديكور الديزاينر واشتغل زمناً طويلا مع مي، فهو المشرف الأول على معارضها المهمة. يعرف جيدا أن لمسة صغيرة يمكن أن تغير كل شيء في نظام التفاصيل. ليست الكثرة والغنى هما الأساس ولكن الترتيب واختيار الأمكنة الأكثر بروزا وحميمية "[27].

ويبدو أنّ الآخر مولع بالكشف والتنقيب في مآثر الشرق، فقد عرض واسيني الأعرج صورة عن المستشرقين واهتماماتهم بثقافة الشرق ممثلاً ذلك في شخصية

"كونراد" وجده بقوله: "لا أدري متى وكيف، سوى أني أحس، كما قلت لك ذات مرة بأن لعنة جدي القرصان الجنوبي الذي لم يستسلم لقهر الأتراك حتى عندما ألقوا القبض عليه وهو في طريقه إلى جزيرة كريت "[28]؛ وهو ما يؤكد أنّ الآخر دائم التفكير في المستقبل والتخطيط للحياة، اتّضح ذلك من خلال سفر "كونراد" من أجل العمل يقول السّارد: "المهم هذا البيت لك وليوبا، ليس قصرا ولكنه يحل بعض مشكلات الحياة عندما يكبر يوبا، سيجد أمامه بيتا جميلا يساعده على تحمل قسوة الحياة أنا أعرف جيدا ما معنى أن يعيش الإنسان مضغوطا بين فراغين مهولين: الحاجة والعراء"، هذا الآخر الذي ارتسمت صورته ضمن عدة أشكال إلا أنه شخصية مثقفة، عفوية، تحب الفن والحياة.

ونلمس من خلال الرّواية تحول مريم كثيرا في إطار عشق الآخر شكلا ومضمونا، بعد سفرها، إذ استوعبت الحياة في أمريكا، وأتقنت ما تتقنه الأمريكية، ويأتي الإعجاب بالآخر في العلاقة الجنسية المفتوحة، وفي الشبق والرغبة في إنجاب فتاة جميلة من الآخر (كونراد) بعد أن فتح عينيها على الخمور والتدخين "كم أتمنى أن يولد ابن له لون شعرك..."[29]، وذلك ليس بغريب فكلاهما شخصية مثقفة، واعية، عفوية، محبة للحياة، وأكثر من ذلك كلاهما يعيش في وطن ليس بوطنه، وجنسية ليست بأصلية.

6.3 اختلاف الأنا والآخر دينيا:

لطالما استهدف الدين قبل الأرض، و"الآخر" الذي هو الاحتلال الصهيوني حاول تجريد الناس من إنسانيتهم والقضاء على مقدسات دينهم على حد تعبير "مي" في إبرازها دور الإنسانية وما تحمله من قيم رغم اختلاف الديانة "المشكلة ليست أن تتنصل من إسلامك أو من يهوديتك وتصير مسيحيا أو بوذيا، وليس أن تبدل دينا بدين وخيارا بخيار، ولكن أيّ دين يمنحك قدرا أكبر لحب الحياة والحرية؟ أي خيار يقودك نحو أعمق ما فيك من حب وإنسانية؟"[30]، إن الآخر بكل أشكاله دينا أو حزبا أو حضارة؛ فهو مغاير للأنا، إذ تختلف ديانة الآخر عن ديانة الأنا، فالآخر كافر، ونحن مسلمون، والغرب لم يكن في يوم من الأيام كيانا واحدا موحدا؛ إذ هو كيان متعدد تعبره منابع مختلفة وتداخلات متنوعة في الزمان والمكان، ورغم ذلك إلا أنه أكثر تعصبا ولا تسامحا تجاه المسلم.

فقد حاول الآخر تشويه الاسلام ومنع انتشاره، ومحاربة المسلمين. "وبسبب المصالح التي فرضتها الحياة الحديثة، شحن الإحساس الغربي، بأكثر صور التعصب عنفا، تجاه الشرق "[31].

ومن الجانب الآخر، "هناك شعب مسالم مكون من مسلمين ومسيحيين ويهود، يطرد من أرض عاش فيها قرونا متعاقبة، وهي جزء حيوي منه، ويستورد شعب من الخارج لا علاقة له بتلك الأرض، هذا هو جوهر الشكل الكثير من الذين وفدوا من أراضي الدنيا اغتصبوا حتى حميمية اليهودي الطيب وابن البلد الذي توارث تلك الأرض أبا عن جد"[32]، وهذا يجسد "الصلح" مع الآخر "اليهودي"؛ ورغم الديانة المختلفة، إلا أنّ روح الآخر توسّمت بسمات الإنسانية كالطيبة والتسامح من خلال ما جاء في الرواية على لسان والد مريم، "من حين لآخر يسألني بابا حسن عندما تصفو ذاكرته: يا ترى؟ هل ما يزال هرمون سيمون كما تركته، رجلا طيبا متعايشا بإنسانية عالية ومؤمنا بأرض طيبة هي لجميع الفلسطينيين، عربا ومسيحيين ويهودا؟"[33]...، ومع ذلك تبقى الإنسانية لصيقة بالبشر رغم الاختلافات الدينية.

وعليه؛ فجوهر الثقافة حاصل في التّحول؛ إذ أنّ التحول الثقافي والتقدم المعرفي إنما يجري بين البشر من الداخل، ولهذا وجب البحث عن هذا التحول في داخل الآخر وفق نزعة تبادلية بين الناس. وعليه فمواجهة الذات لثقافة الآخر وحضارته مواجهة تاريخية حتمية لكونها جزء أساسيا من المواجهات المستمرة بين الشعوب بثقافاتها وحضاراتها المختلفة، فالذات هي الفرد المبدع بما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه (وهنا تبرز علاقة التأثير والتأثر بين الثقافات)، وإضافة إلى المواجهة والاختلاف يبرز موقف الوقوف أمام الآخر، موقف تشعر فيه الذات بالنقص؛ "فالمختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو ما لا تملكه. أي أن الذات في مواجهة الآخر، إنما تواجه نفسها منقوصة.." [34]. والذات تبحث عن ذاتها عبر هذا الآخر وترغب بالاكتمال عبر التمازج به، ومفاد هذا أن وقفة الذات أمام الآخر باختلافه الثقافي-الحضاري وقفة مشبعة بالقلق والخوف، ذلك القلق الذي يهدد هوية الذات ويدفعها بالرحيل نحو الآخر، ولم يقف الأمر عند حد الاغتراب عن المجتمع إنما

تعداه إلى الاستسلام لمفردات الفكر الغربي وسلوكهم وموروثهم؛ ومثال ذلك الثقافة الفرنسية في إفريقيا.

ولم يكتفِ الآخر بالغزو السّلاحي؛ بل تعداه إلى الغزو الثقافي (الهيمنة الثقافية) تصور "مي" ذلك "إن الانسان أعطى لشروره أناقة وهندسة جديدة، المؤسسة صنعت مثقفها الذي أصبح معمّمًا المثقف المصاب بالعمى الكلي، يتحدث عن المضرات وفق منطق الهيمنة. زاوية نظر حادة جدا لا ترى من الحقيقة الكلية إلا جزؤها المضاء. المشكل ليس في الحقيقة ولكن فيمن يسلط الأضواء على أجزائها المظلمة"[35].

4 الأنا والآخر علاقة ضرورية (حتمية):

على العموم فإنه "ومن نتائج أحادية الثقافة العربية وتفرعاتها وانعكاساتها الخطابية والسلوكية هو هذا الفصل العنيف بين العدو والصديق، أو الموقف المتوتر والقلق الرافض للآخر" 36، فالآخر متعطش للقضاء على ثقافة الأنا؛ ليس هذا فقط؛ بل "إن الحضارة الغربية لا تسلم نفسها لطالبها الآتي من الشرق أو من الجنوب، إلا إذا خلعته من تاريخه وقطعته من ماضيه وجردته من تراثه وفصمته عن شخصيته الحضارية فالدينية، الحضارة الغربية لا تقوم إلا على أشلاء الحضارات الأخرى، حضارة حصرية تنفي كل ما عداها، لا تقبل حوارا ولا تزاوجا. وما حدث قبل ألف عام، فالمرض مرض أوروبي والجرثومة جرثومة العنف الأوروبي الأكبر"[37]، وهو ما جاء على لسان جد مريم في المقطع الآتي: "الحرائق وهي تأكل الكتب والأوراق، ويجرجر الفقهاء والعلماء من المسلمين واليهود على مشارف المدينة وفي ساحات كنائسها، عرف أن الثمانية قرون احترقت، وأن زمنا أعمى كان يدق على الأبواب. إسبانيا لا تعرف حجم الخسارة التي تسببت فيها، والضرر الذي جرحت به المدينة"[38]، وإذا كان الأمر كذلك، فإننا نجد أنفسنا أمام الحقيقة التي تحكم المسلمين مع الغرب هي "ذاكرة المسلمين تحتفظ بصور سلبية حول تعامل الآخر معهم، ذلك أن العالم الإسلامي قد تعرّض، ولا يزال يتعرّض لهجمات غير مسوغة من قبل أرباب الديانات الأخرى وأتباعها "[39].

وفي سياق ما أظهرته الدّراسة تشكلت رؤية "الأنا" للآخر من خلال مجموع تلك الممارسات والقيم الثقافية والتي تشكل في الوقت نفسه وعي "الآخر" بالأنا، تلك الرؤية

التي انبنت تراكميا وتم استشعارها بفعل ثقافة الآخر وعلاقته بالأنا. هي صورة بين الواقع والتخييل، استطاع الروائي تحديدها والفصل من خلالها في قضية الصراع بين الأنا والآخر، وهو ما وضح أن الآخر في كفتي الرفض والقبول، فأحيانا شخصية إنسانية متفتحة متسامحة، وأحيانا شخصية ظالمة مستعمرة، ومنه فالآخر ضرورة لكل أنا، حتى إن أي كيان يبحث عن الاستمرار لا بد له من آخره، ولا يضمن وجوده إلا به وبعلاقته المتبادلة معه.

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره نستنتج ما يلي:

- خلصنا أنّ الرواية جسدت الثنائية (الأنا والآخر) من منطلق يسعى للتعايش مع الآخر وقبوله، والتّحاور معه في كثير من المفارقات، وذلك باحترام مبدأ الاختلاف مهما كان التباعد الفكري الأيديولوجي المؤسّس من اختلاف؛ الدين، التاريخ، الثقافة.

- لقد ظهر في مقابل علم الاستشراق "علم الاستغراب" الذي يهدف إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر مع الاستغراب تغيرت الأدوار، فأصبح الأنا الأوروبي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم، كما أصبح الآخر العربي المدروس هو الذات الدارس اليوم، وبالتالي تحول جدل الأنا والآخر.

- موضوع الشرق-الغرب هو مزيج من التعارض والتجاوز العريق، إنه تعايش إشكالي لشقين أساسين يؤثر كل منهما في الآخر، ويتمازجان في السلم كما في الحرب، دون أن يختلطا بشكل دائم.

- جاءت ثنائية الأنا والآخر في الرواية العربية إشكالية في علاقاته الداخلية بأبعادها التربوية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، فعلى الرغم من تشكل الغربي بملامحه ورؤاه ومواقفه وثقافته في صورة نمطية أحيانا، كما يراها الإنسان الروائي العربي فإن ما يبدو على سطح العلاقات التربوية والثقافية والسياسية والصراع خلاف ذلك فقد تجسدت صور الكره والعداء المتراكم بفعل تغذية الآباء نتيجة ما عايشوه في الحرب.

- ثنائية العلاقة بين العرب والغرب تقوم على نهب تاريخ العرب وتجريدهم من انتماءهم الحضاري والثقافي وإخراجهم من أوطانهم، وعلى التعصب الأعمى من منظار تفوقه، فهو أسير رؤيته وأفكاره المسبقة عن الوطن العربي، هو ما جعل الروائي العربي يبحث عن معادل موضوعي ويتطرق لفهم الآخر وتجسيده بكل أبعاده الايجابية والسلبية.

- تضعضع "الأنا" الشخصية العربية هو في حقيقة الأمر راجع إلى فقدان الأنا لاستقلالها الذاتي وإخضاعها في كثير من جوانب حياتها لتأثيرات الآخر (الغرب).

- الوعي بالغير مثل الوعي بالواقع، فهو وعي قصدي يؤدي إلى فهم الآخر ومسامحته وعدم اتهامه.

- مهما قامت بين الشرق والغرب من مؤثرات سلبية في الماضي والحاضر، إلا أن عوامل الالتقاء والتفاهم والتعايش تفوق تلك المؤثرات التي توحي بخلاف ذلك وهنا يأتي عنصر الحوار (النقاش).

- صورة الآخر قابلة للتغيير والتعديل، فهي تتشكل وفق ما نريد بناءه، أو نتيجة الأحكام المسبوقة فالآخر مغاير للأنا.

- الظروف التي يتم فيها الاتصال والتفاعل هي المسؤولة عن رسم صورة الآخر في الوعي الجماعي.

- القيم الثقافية هي التي تضمنُ سير الاتصال بالآخر، إذ لا يمكن أن نتوقع اتصال ايجابي وفعال حين تسود في المجتمع الذي يحكم طرفي الاتصال أو كليهما قيم ثقافية معينة مثل: الانتهازية، وروح المبالغة، والأنانية، والتزمت، والظلم، وروح المعاكسة، فحينها ستؤثر على تلك القيم مجموعة من الاحتمالات، منها: مجاملة الآخر، أو الخضوع للآخر، أو رفض الآخر، أو ظلم الآخر، أو استغلال الآخر، أو إلغاء الآخر..

- المعيار الغربي (الآخر) هو الذي يحدد للذات (الأنا) موقعها، فلا سبيل لرؤية الذات إلا بمنظور الآخر.

- لقد تجسدت صورة الآخر في رواية سوناتا أشباح القدس بكل تناقضاته واختلافاته، وأخلاقه وطبائعه، وتفكيره، إذ تعرفنا عليه من خلال الأنا.

- الصورة التي جسدتها رواية سوناتا لأشباح القدس لعلاقة الأنا بالأخر هي نوع من التحاور والتفاهم تارة والتّهيمن والصراع تارة أخرى وهو ما يوحي بالتداخل المفتوح الذي يتساوى فيه الطرفان ويتماثلان، ورغم التناقضات التي بينهما، إلا أنّ الخير باق في البشر.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

1. إبراهيم عمر السكران، سلطة الحضارة الغالبة، دار الحضارة، الرياض، ط1، 2014.
2. بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1،2009.
3. تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، بيروت-لبنان، ط1، 1993.
4. حسن شحاتة، الذات والآخر في الشرق والغرب، صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008.
5. حفناوي بعلي، تمثلات الممنوع والمقموع في الرواية العربية المعاصرة، دار البازوري، عمان-الأردن، ط1، 2015.
6. زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية مشكلة الحب،دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت.
7. سعد البازعي، مقاربة الآخر مقارنات أدبية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999.
8. السيد ابراهيم، المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2005.
9. صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط1، 2003.
10. عبد الحميد الحسامي، الأقنعة والوجوه قراءات في الخطاب الروائي، نادي الطائف الأدبي، د.ط، 2016.
11. عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان، ط1، 2010.

12. عزيز نعمان، رواية ما بعد الحداثة دراسة في نص "سيمرغ" لمحمد ديب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
13. علي بن إبراهيم النملة، الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها، دار بيسان، الرياض، ط3، 2010.
14. عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر -الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم، ط1، القاهرة، 2005.
15. محمد الهلالي وعزيز لزرق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2010.

المراجع المترجمة:

1. سيجموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، مصر، ط4 ،1982.
2. طوني موريسون، صورة الآخر في الخيال الأدبي تر: محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2018.
3. تزيفتانتودوروف، تأملات في الحضارة، والديمقراطية، والغيرية، تر: محمد الجرطي، مجلة الدوحة، العدد 82، 2014.

*** *** ***

الهوامش:

[1] **عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر -الشخصية العربية والشخصية الاسرائيلية في الفكر الاسرائيلي المعاصر، دار العلوم، ط1، القاهرة، 2005 ص12.**

[2] **محمد الهلالي وعزيز لزرق، الغير، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2010، ص09.**

[3] **السيد ابراهيم، المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2005، ص152.**

[4] **زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية مشكلة الحب، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت، ص185.**

[5] **طوني موريسون، صورة الآخر في الخيال الأدبي تر: محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2018، ص26.**

[6] **صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط1، 2003 ص10.**

[7] بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1،2009، ص124.

[8] المرجع نفسه، ص126.

[9] حسن شحاتة، الذات والآخر في الشرق والغرب، صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008، ص65.

[10] إبراهيم عمر السكران، سلطة الحضارة الغالبة، دار الحضارة، الرياض، ط1، 2014، ص25.

[11] واسيني، الرواية، ص26.

[12] المرجع نفسه، ص423.

[13] عزيز نعمان، رواية ما بعد الحداثة دراسة في نص "سيمرغ" لمحمد ديب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013 ص108.

[14] واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، ص391.

[15] المرجع نفسه، ص38.

[16] السيد إبراهيم، المتخيل الثقافي، ص141.

[17] المرجع نفسه، ص93.

[18] المرجع نفسه، ص300.

[19] واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، ص383.

[20] صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ص49.

[21] واسيني، رواية سوناتا لأشباح القدس، ص223.

[22] المرجع نفسه، ص11.

[23] عبد الحميد الحسامي، الأقنعة والوجوه قراءات في الخطاب الروائي، نادي الطائف الأدبي، د.ط، 2016، ص41.

[24] واسيني، الرواية، ص229.

[25] المرجع نفسه، ص81.

[26] المرجع نفسه، 433.

[27] المرجع نفسه، ص71.

[28] المرجع نفسه، ص405.

[29] المرجع نفسه، ص127.

[30] المرجع نفسه، ص434.

[31] عبد الله ابراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان، ط1، 2010 ص184.

[32] المرجع نفسه، ص391.

[33] المرجع نفسه، ص42.

[34] سعد البازعي، مقاربة الآخر مقارنات أدبية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999، ص12.

[35] واسيني الأعرج، الرواية، ص30.

[36] تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، بيروت-لبنان، ط1، 1993، ص36.

[37] حفناوي بعلي، تمثلات الممنوع والمقموع في الرواية العربية المعاصرة، دار البازوري، عمان-الأردن، ط1، 2015، ص66.

[38] واسيني الأعرج، الرواية، ص428.

[39] علي بن إبراهيم النملة، الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها، دار بيسان، الرياض، ط3، 2010، ص22.